الفصل الرابع

# وَيْك مسلمة

ثبتت دعائم العرش لبني مروان، ولم يكن الخليفة عبد الملك في غفلةٍ عما يقتضيه هذا العرشُ من حق التدبير في حياته وبعد موته … فإنه ليخشى أنْ يتواثَب إليه الطامعون من السُّفيانية أو الهاشمية بعد موته، وقد خلَّف عبد الملك بضعة عشر ولدًا كلهم لأبٍ، ولكنَّ أمهاتهم شتَّى؛[١] منهن العبسية، والمخزومية، والهاشمية، والسُّفيانية، ومنهن أمهات أولادٍ[٢] من الترك والسودان والروم وبنات كسرى، فما أحرى كلَّ واحدة من هؤلاء الضرائِر أنْ تُرَجِّي العرش لولدها، وأنْ ينفخَ فيه أخواله من روح العصبية ما يدفعه إلى الفتنة …[٣]

لقد كان عبد الملك شيخًا من أهل الرأي قبل أنْ يلي هذا الأمر،[٤] وكانوا يسمونه فقيه بني مروان؛ لصلاحه وعلمه وطول ملازمته لأهل الحديث وحَمَلَة القرآن، وأصحاب الرأي من العُبَّاد والصالحين وأهل التحرُّج،[٥] فما كان أجدر شيخًا هذا مكانه أنْ يترك أمر المسلمين شورى بينهم، يختارون بعده من يشاءون لِيَلِي أمرهم، لولا أنه يخشى عليهم الفتنة، فليُوَلِّ عهده رجُلًا من أهل هذا البيت المرواني، ينهض بأمر الدولة من بعده؛ ليذهب إلى ربِّه راضيًا مطمئنًّا قد أَمِنَ على هذه الأمة أنْ تتوزَّعها الفتنُ وأسبابُ المطامع.

---

[١] كان لعبد الملك أربع زوجات وعديد من الحظايا، وله من هؤلاء وأولئك أولاد، بلغت عدتهم بضعة عشر.

[٢] الجارية إذا ولدت لسيدها، ارتفعت منزلةً، فصارت في مكانة وُسطى بين الجارية والحرة، وتسُمى حينئذٍ: أم ولد.

[٣] لكل ولد عصبية من أسرة أمه.

[٤] قبل أنْ يصير خليفة.

[٥] التحرُّج: خوف الله.